

تقديم

يختلف التعبير الشعبي أساساً عن التعبير الفردي في أمرين جوهريين: الأول، أن هذا التعبير الشعبي يركز أكثر ما يركز على مسائل وجودية ترتبط بالوجود الكلي. وحتى عندما انشغل الإنسان في مراحل متأخرة، بالصراع بين الأنا والآخر. فإنه بعد أن يصرّ بهذا الصراع. يحيله في النهاية إلى التفسير الكوني لطابع الأشياء.

أما الأمر الثاني، فهو أن هذا التعبير يتعامل مع المسائل الوجودية على أساس أنها قابلة للفهم، حيث أن هذا التعامل ينبع أساساً عند الإنسان الشعبي من الإحساس بحتمية العلاقة بين الإنسان والطبيعة من ناحية، والإنسان والزمن أو التاريخ، من ناحية أخرى.

الإنسان الشعبي إذن، يحس أنه لا بد أن يملك العالم، فهو لذلك يحاول أن يستوعبه في أفق فهمه، وأن يبحث له عن مغزى يحل به كل مشكلاته. ولهذا فإن الفهم عنده يتحرك بين قطبين: قطب يتمثل في إحساسه بالأشياء بوصفها جزءاً من كيانه؛ وقطب يتحقق فيه الاندماج في الوجود الكلي.

ولاعجب بعد هذا أن نجد التعبير الشعبى على الدوام يجمع بين الدينى والدينوى. وإذا كان الدينوى غير مكتمل، وكان ينزع إلى الخروج عن النظام المثالى، فإن الدينى لابد أن يسعى فى حركته إلى الاكتمال والكمال. والوسيط الذى يتحرك بين هذا الدينى وذاك الدينوى هو البطل على نحو يؤكد قيمة البطولة فى التعبير الأدبى الشعبى. فالبطولة الشعبية تتحدد حركتها بغائية تتلاشى معها الفوضى ليسود النظام. ويتلاشى معها الشر ليسود الخير. ويتلاشى معها القبح ليسود الجمال.

فهل يمكن أن نقول أن البطولة الشعبية بكل أشكالها تفجرت عن رغبة الإنسان الشعبى الطبيعى الملحة فى الصمود والتسامى؟

إن البطل فى كل الآداب الشعبية يصور وكأنه بذرة نبتت فى أرض مهملة.. وهذه البذرة تظل تنمو مواجهة كل عواصف الحياة إلى أن تنطلق متحررة من كل قيد يعوق حركتها نحو التسامى. وهناك يجد معنى الوجود ومغزى الحياة.

وهكذا أدرك الحس الشعبى منذ القدم ما أدركه الفلاسفة بعد ذلك بقرون. وهو أن معنى الحياة لا يقع فى إطار المرئى والمسموع، بل فيما وراء هذا المرئى والمسموع، أى فى الوجود البعيد الغائب عن حس الإنسان.

وعلى هذا النحو تشكل الأبطال الأسطوريون، كما تشكل أبطال الحكايات الخرافية، فالبطل فى الأساطير يتحرك حركة رأسية من

أعلى إلى أسفل، أو من أسفل إلى أعلى من أجل البحث عن معنى للوجود يرتاح إليه الناس ويسرون على هديه.

وعلى هذا النحو، أو على نحو قريب منه، تتشكل صورة البطل الخرافي؛ إنه يولد صغيراً ربما مثل «عقلة الإصبع»، أو يولد مهملاً لا يأبى به أحد، ولكنه لا يلبث أن يكبر وتقوى إرادته، وتزداد جرأته، فيخرج إلى العالم الأرحب ومنه إلى العوالم المجهولة لاقتناص معنى آخر للحياة يضاف إلى رصيد المعنى الذى تركه الأبطال الأسطوريون.

وفى مرحلة تاريخية تالية لذلك، عندما ازداد الإنسان انشغالاً بعالمه الواقعى وبكل ما فيه من مفارقات ومتناقضات، صنع نموذجاً ثالثاً لبطل يعيش واقعه فى عمق. على أن هذا البطل لا يكتفى برصد الواقع الذى يعانى فيه الناس من الصراعات، بل ينطلق من المحدود إلى اللامحدود لعله يستكشف للشعب حكمة أو معنى يبصره بحقائق الأشياء ويعينه على تحمل الحياة.

وتعد البطولات الشعبية التى احتفل بها الشعب العربى بعد الإسلام تعبيراً عن حس عربى جمعى منبثق من المفهوم العام للبطولة الشعبية من ناحية، ومن الوعى الخاص بالتاريخ بالمفهوم الإسلامى من ناحية أخرى.

فمما لاشك فيه أنه بعد أن استقرت العقيدة الإسلامية فى ضمير الشعب العربى وفى فكره وسلوكه، أصبح الحس الجمعى منشغلاً شعورياً ولاشعورياً بحركة الحياة وغايتها بعد أن غير الإسلام

الكثير من المفاهيم التي ترتبط بمعنى الحياة والوجود، والحق والباطل. وعلاقة الإنسان بالزمن المحدود واللامحدود؛ فللحياة مغزى وغاية لأنها ترتبط بفعل الإنسان الذي لا ينبغي أن يوجه نحو الشر أو يكون محدوداً بمصلحة فردية، بل يكون موجهاً إلى صالح الناس جميعاً. وعلى هذا الأساس يكون جزاء الإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وقد ترتب على هذا تغير حس الإنسان بالتاريخ؛ فالماضي ليس وجوداً منتهياً، وليس المستقبل مجهولاً أو عدماً، بل إن الماضي عظة وعبرة للحاضر والمستقبل، كما أن المستقبل أمل يمتد حتى بعد الموت عندما يعث الإنسان ليجازى على فعله.

والإنسان ليس سوى مظهر واحد للمظاهر المتعددة لفيض الوجود الإلهي. وإذا كان الوجود الإلهي حركة وقوة وعدلاً ورحمة، فعلى الإنسان أن يتحرك حركة المؤمن بهذه المفاهيم.

أما الحق والباطل، فلم يعودا مختلطين، بل أصبح الحد فاصلاً بينهما مثلما أصبح الحد بين الحلال والحرام حاسماً. «الحلال بين والحرام بين».

لقد استوعب الإنسان العربي هذه المفاهيم الجديدة. وأصبحت أساس حركته في الحياة. وعندما صنع أبطاله لكي يعبروا عن آلامه وآماله، جعل نسيجهم منطويًا على كل هذه المفاهيم الجديدة.

ولكن تتحقق هذه المفاهيم على مستوى الأفعال يتحتم أن يكون البطل متصفاً بمجموعة من الصفات التي تؤهله لأن يكون ممثلاً

للجماعة. وأولى هذه الصفات حرص البطل على تأكيد ذاته بتحريرها أولاً من كل ما يكبلها من قيود اجتماعية بالية. ولا ينشأ لذاته، يحقق في الوقت نفسه - أساساً - صالح الجماعة بأسرها وأهدافها.

وهنا نأتى إلى الصفة الثانية اللازمة لتحقيق الصفة الأولى وهي الشجاعة. وإذا كانت الشجاعة صفة يمكن أن يتصف بها الأفراد العاديون، فإن شجاعة البطل الشعبى تتميز بخصوصيتها، لا لأنها تعد جماع شجاعة الجماعة فحسب، بل لأنها، قبل كل شئ، مستمدة من القوة الإلهية؛ فالبطل فيض من نبع تلك القوة، وهو تيار متدفق لا يصمد أمامه إلا الحق والعدل والخير. وهو لا يهجم الموت لأن بطولته تأكيد للحياة والموت على السواء.

لهذا كله فإن البطل الشعبى ليس له مطمع مادى أو شخصى، لأنه قادر على أن يكبح جماح نفسه بقدر ما يكبح جماح غيره، ولأنه لا يتحرك من وعى زائف أو من موقف متردد يقف به فى منتصف الطريق ليساوم على التصالح والحل الوسط. وإنما ينطلق البطل مدفوعاً بطاقة حيوية هائلة ليصيب الهدف الكبير، وهو أن يجعل للنور طريقاً إلى كل قلب ليبصر به الحقيقة ويسعد بالمغزى الكامل للحياة.

وليس الهدف من هذا الكتاب أن يقدم البطولات العربية. كلا على حدة بهدف إبراز نموذج البطل وملاءمته للرسالة التاريخية

المنوط بتحقيقها، فلقد سبق أن تناول الباحثون بطولات السير العربية المختلفة بالبحث العميق الجاد، سواء كان هؤلاء من الباحثين العرب أم من الأجانب. وكان نصيبى من هذه السير بحثى حول سيرة الأميرة ذات الهمة ومدى تأثير هذه السيرة الكبيرة حجما وموضوعا فى الملاحم والأغنيات البيزنطية.

ولكن الغرض من هذا الكتاب هو إبراز مدى انشغال الوعى العربى بالبطولات العربية الممتدة منذ بطولة الرسول عليه الصلاة والسلام. الذى يمثل النموذج الأعلى للبطولة الإسلامية. فمنذ ذلك التاريخ. ومنذ أن كتبت السيرة النبوية، وحتى اليوم، لم يكف الوعى العربى عن أن ينتقى من قلب التاريخ نماذج من البطولات العربية، مثل بطولة على بن أبى طالب وعنترة، والملك سيف بن ذى يزن، والظاهر بيبرس، وغيرهم.. وقد كان من الممكن أن يحدث لدى الشعب العربى نوع من الإكتفاء الذاتى بالبطولة المثالية بطولة الرسول عليه السلام، فلا يلتفت إلى غيرها، ولكن الوعى بأهمية استمرارية هذه البطولة المثالية كان قويا، ومن هنا كانت الاستجابة لدوافع اللاشعور الجمعى بتخليد بطولات عربية أخرى تحتذى البطولة المثالية من ناحية، وتأخذ على عاتقها الإبقاء على شعلة الدين الإسلامى متوهجة من ناحية أخرى، بخاصة فى الظروف التاريخية التى يكون فيها الإسلام مهدداً. والدولة الإسلامية مهددة.

وعلى الرغم مما يبدو من تماثل بين البطولات العربية التي اكتملت صورها في عصور متأخرة من حيث أنها جميعا تشترك في البطولات الخارقة، وأن رسالتها تتحدد بمحاربة كل ما يتهدد كيان الأمة الإسلامية والرسالة الإسلامية السامية، فإن كل بطل يتميز عن غيره بملامحه وأفعاله في الحقبة التاريخية التي عاش فيها.. ولا غرابة في هذا، فكل سيرة من السير العربية تحرص على أن تجعل بطلها قائد الجيش الشعبي في ظروف تاريخية محددة، وتجعله المسئول الأول عن إنقاذ الشعب من كل ما يتهدده ويتهدد مسيرة حضارته في الداخل والخارج معاً. ولهذا فإن المجال التاريخي الذي عاش فيه عنتره، غير المجال الذي عاش فيه الظاهر بيبرس، وكلاهما عاش في مجال يخالف ذلك الذي عاشت فيه البطلة الأميرة ذات الهممة أو الملك سيف بن ذي يزن، وكل هؤلاء تختلف مجالات أفعالهم عن المجال الذي شهد الصراع بين أبي زيد الهلالي والزناتي خليفه.

ويؤكد هذا الامتداد التاريخي بالبطولات الإسلامية مدى انشغال الذاكرة الشعبية بالنموذج البطولي إلى درجة أنها لم تكف عن إنتاجه منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام. حتى العصر المملوكي.

وعندما كفت الرواية الشفوية لسير الأبطال أو تقلصت، كانت الذاكرة التاريخية للشعب العربي من الفعالية بحيث أنها كانت شديدة الحرص على الإبقاء على النماذج البطولية حية في ثنايا الكتب التي تعد تسجيلاً رائعاً حياً لأحداث السير المروية. ولولا هذه الكتب التي دونها مجهولون، لاختفت هذه النماذج البطولية من

الذاكرة التاريخية للشعب العربى، ولم تمكن الأفراد المبدعون من إعادة إنتاج هذه البطولات فى أعمالهم الأدبية المتفردة.

وتقاس بطولة البطل فى كل النماذج المشار إليها بتفوقها على قوى الشر، لامن حيث الكيف فحسب، بل. من ناحية الكم كذلك؛ فمهما تكن درجة تأصل الشر، ومهما يكن تمتع القوة الشريرة بقدرات خارقة وحيل واسعة فى وضع العراقيل فى طريق البطل، يظل البطل متفوقا عليها فى ذكائه وحسن حيلته، فضلا عن تفوقه فى القوة الجسدية. ويعد هذا الصراع بين الطرفين وتصعيده إلى أقصى درجة، من أهم المتع الفنية التى يقدمها القصص البطولى للقارئ والمستمع. على أن الهدف الأبعد من هذا التصعيد هو تأكيد قدرة البطل فى أن يسلب العناصر الشريرة قوتها وأن يجعلها مشلولة الحركة. وهذا يعنى أن البطولة تعنى تحويل مسار الأحداث الذى كان مائلا عندما كانت قوة الشر قادرة على التهديد، إلى وضع جديد تصبح فيه القوة الشريرة خامدة الأنفاس، ويصبح البطل بمثابة صمام الأمان لمجتمعه.

وربما كان من الطريف أن نشير فى هذا المجال إلى المعادلة الرياضية التى انتهى إليها ليشى شتراوس فى بحثه عن الأسطورة وهى:

$$F_x(a) : F_y(b) :: F_x(b) : F_{a-I}(y)$$

والمعادلة تشير إلى حركة الصراع بين قوى الشر وقوى الخير، وما يؤول إليه هذا الصراع فى النهاية؛ فإذا كانت (a) تمثل قوى

الشر، و fx تمثل وظيفة الشر (على أساس أن الحرف أن الحرف F اختصار لكلمة Function ، أى وظيفة، والحرف x رمز لقوة الشر) فإن (b) تمثل قوة الخير، كما أن fy تمثل وظيفة الخير.

وتبدأ المعادلة ببداية حركة البطل . وهى المرحلة التى تبدو فيها القوة الشريرة مناوئة للبطل ، ثم لاثلبث الأمور أن تنقلب عندما تسلب القوة الخيرة (b) القوة الشريرة (a) قدرتها على فعل الشر، وبذلك تصبح (b) fx ، فى حين تنتقص درجة قوة الشر عند الشخصية الشريرة، فتصبح $fa - l$. ثم يسفر الموقف فى النهاية عن وضع مختلف كلية عندما تستسلم قوى الشر لتقتل أو تبعد مفسحة المجال أمام الخير وحده، أى للوحدة الرمزية (y) .

أما عندما تكون قوة الخير غير متفوقة على قوة الشر، أى أنها لم تمنح فائض القوة عليها، فإنها تصبح عاجزة عن إتمام العمل البطولى . وهذا ماحدث لبطلين شعبيين ذائعى الصيت وهما أبو زيد الهلالي والوزير سالم؛ فحيث أن القوة وزعت على أساس التكافؤ بين القوة الخيرة والقوة الشريرة (راجع أسباب هذا فى الفصل الثالث)، لابد أن يستمر أعمال القتل بين الطرفين على أساس التكافؤ كذلك حتى يفنى الطرفان عن آخرهما .

وقد بدأنا البحث بالسيرة النبوية الشريفة، حيث أن إنجازات الرسول عليه السلام . فى سبيل دعم قوى الخير، وقهر القوى الشريرة، حددت النموذج الأعلى للبطولة المثالية التى حاولت البطولات القومية بعد ذلك أن تحتذى بها. وقد ظلت السيرة النبوية تروى زمنا

طويلا إلى أن دوت لتظل خالدة في الذاكرة التاريخية للشعب العربي
أبد الدهر. وإلى جانب هذه السيرة المدونة، ظل الرواة الشعبيون
حريصين على رواية أخبار منها في المناسبات الدينية المختلفة.

وفي حقبة تاريخية أخرى شغل العقل العربي الجمعي ببطولة
على بن أبي طالب، وكنت قد عثرت على ثلاثة مخطوطات ترجع
إلى زمن مبكر، تحكى عن بطولة على بن أبي طالب في معركة
تبوك، فشئت أن أقدمها للقارئ لتؤكد استمرارية انشغال الوعي
العربي بمفهوم البطولة النموذجية. وكان هذا هو موضوع الفصل
الثاني.

أما الفصل الثالث فيبحث في مفهوم البطولة القومية واستمرارية
تصويرها في أكثر من نموذج بطولي خلال حقبة متتالية من
التاريخ.

وأما الفصل الرابع فقد خصصناه لبطولة الملك سيف بن ذي يزن
نظراً لخصوصية هذه البطولة في حمل رسالة تاريخية خاصة تختلف
عن سائر الرسائل التي حملها الأبطال الآخرون؛ فإذا كانت
البطولات القومية الأخرى، مثل بطولة عنتره والظاهر بيبرس والأميرة
ذات الهمة، قد حملت على عاتقها التصدي للعدو الخارجى
المتربص بالإسلام والدولة الإسلامية، فإن الملك سيف بن ذي يزن
حمل رسالة أخرى تعد صدقاً لأحداث تاريخية حدثت بالفعل في
القرن الرابع عشر الميلادى، عندما أعلن الملك سيف أرعد ملك

الحبشة أنه سيحرم مصر من مياه النيل . وكان على الملك سيف بن ذى يزن أن يحضر كتاب النيل من مكمته السحرى حتى يبطل بقوة سحره، كل المزاعم الباطلة لملك الحبشة .

ولم تكن الذاكرة العربية مختزنة لنماذج من الأبطال الرجال فحسب، بل كانت مختزنة كذلك لنماذج من البطولات النسائية التى أبرزتها فى بعض السير وجعلتها تقف على قدم المساواة مع البطل الرجل من حيث الانتصاف بقوة الإرادة والإضرار والوعى المستنير برسالة المستقبل. ولهذا فقد خصصنا الفصل الخامس والأخير للبطولات النسائية.

وبهذا يؤكد هذا البحث أن نماذج البطولات العربية التى جاءت متعاقبة بعد بطولة الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت الزاد الذى تزود به الشعب العربى فى الملهمات التى أملت به فى الحقب التاريخية المتعاقبة، وما تزال تلم به حتى اليوم. ومن ثم فهو ما يزال يتذكر هذه البطولات، وسوف يظل يتذكرها ويعيد إنتاجها على مستوى الوعى الفردى والجمعى على السواء.

أ. د. نبيلة ابراهيم